مقدمة عامة

****

كنت أنتظر شهر "رمضان" واستحث الأيام إليه، بينما ذهنى يشغل بعديد من الموضوعات أعنى بالعمل فيها، وأتمنى لو تهيأت الظروف بما يوفر لى وقتا للتركيز المطّرد فى متعة التفكير وتأمل مادة الموضوع ومراجعتها واستكمالها، ودمجها فى الوقت نفسه فى سياق واضح، ولم يكن ليتاح هذا الوقت إلا فى هذا الشهر. وكان موضوع هذا الكتاب مما شغلنى منذ تسعينيات القرن الماضي، ودفعتنى دواعيه للكتابة وقتذاك عدة مقالات نشرتها فى مجلة المسرح، ولكن ظل الموضوع يتسع وتتعدد أبعاده وتتكشف جوانبه، فى ترافق مع الدواعى التى كانت تكثر وتتزايد عمقا وإلحاحا فى المناخ العام، وتتعلق- من ناحية ثانية- الأسئلة الحرجة ومتفاوتة الأهمية برقبة فنون الأداء، إن لم يكن برقبة الفنون عامة، وتخرج بها- من ناحية ثالثة- من دائرة تذوق الفنون وإبداء الرأى فى هذا العمل الفنى أو ذاك، إلى دائرة التحريم والإباحة من منظور ديني. ولا ريب أن هذا المنظور نفسه يعرّض الفنون جملة لدرجات متفاوتة من الخطورة، بما يثيره من أفكار ملتبسة ومرتبكة معا. ولا غرو أن تتزايد الخطورة إلى حد الهلع والمخاوف التى قد تهدد حياة الفنانين أنفسهم، متى تهيأ المنظور الدينى لأن يعتلى بأربابه سدة الحكم، ليتمتع بسلطة اتخاذ القرار الذى يمكنه أن يمنع أو يمنح، أو يطارد ظاهرة ما ويضعها تحت طائلة القانون. ولم تكن هذه الخطورة فى الحقيقة بعيدة عن الوعى بالتاريخ وما شهده من تجربة الحكم السياسى بمشروعية "الدين" أو أية أيديولوجية تضفى على نفسها صفة القداسة،

فكان يسيرا- على أية حال- أن تتداعى إلى الوعى تجربة أوروبا فى العصر الوسيط، وقد انزلقت إليه بمجرد أن أعلن الإمبراطور الرومانى المسيحية ديانة رسمية على نحو فرض بالنتيجة هيمنة آباء الكنيسة على القرار السياسي، فأعلنوها حربا شعواء على الفن مرة باعتباره مشبعا بثقافة الإغريق والرومان الوثنية التى سادت ما قبل المسيحية، ومرة باعتباره وحى الشيطان إلى سدنته، فأرجعوا إليه كافة مظاهر الفساد فى الأخلاق والمجتمع، مما خيم بالظلمة على العصور الوسطى جميعا فعرفت بها.ولم تدرك أوروبا بصيص النور وتتململ تمردا على قبضة الكنيسة ورجالها، إلا فى سياق الهزائم الساحقة التى تعرضت لها حملاتها فى الشرق تحت لواء الصليب، وسقوط القسطنطينية عاصمة الجزء الشرقى من الإمبراطورية- من ناحية ثانية- تحت أقدام الأتراك بمنتصف القرن الخامس عشر. وبينما تتفتح أوروبا على عصر النهضة وفى حلقها مرارة الهزائم التى لحقت بها، وتحاول أن تتجاوزها، كانت بلاد الإسلام تهوى فى بنية التخلف والظلام نفسها على نحو مطرد، حتى كانت المواجهات بينهما- بدءا من ختام القرن الثامن عشر بالحملة الفرنسية على مصر- فى غير صالح العرب والمسلمين لا عسكريا ولا حضاريا.

وقبل هذا السياق بما أفرزه من هواجس ومناخ عام كان مألوفا أن يعتزل الفنان مثله مثل غيره من الناس الذين يعتزلون عملهم، بسبب الشيخوخة أو لمرض ألم بهم وأقعدهم ولم يستطيعوا معه بذل ما يقتضيه من جهد سواء أكان ذهنيا أو بدنيا، ويبقوا رغم هذا وافرى التقدير للمهنة ولمن ينهض بأعبائها بشكل أو بآخر، وإن انتقده لتقصير يراه هنا أو هناك.ولكن تدخل المناخ العام على نحو مطرد منذ التسعينيات، ليفرز حالات عديدة من اعتزال الفنانين مقترنة- فى الوقت نفسه- بإرادة "التوبة"عن الفن، وحكم"تحريمه"بصفته إثما.والحقيقة أنه لا يمكن- من ناحية ثانية- تحديد بداية معينة لهذه الحالة من اعتزال الفن، فلا أحد يمكنه تحديد

من البادئ؟ ومتى؟ وبما علل اعتزاله، وعبّد الطريق لمن تلاه. لكن بالتأكيد تشكل اعتزال الفنانين- فى عقد التسعينيات من القرن الماضى وما تلاه- كظاهرة تدمج أبعاد الشخصية بتنويعاتها المتباينة بأبعاد اجتماعية، وعملية متعلقة بسوق العمل والإنتاج، بالحجج المستمدة بشكل أو بآخر من المرجعيات الدينية، وقد زاد عدد المعتزلين، فلا يكاد يمر يوم أو أسبوع إلا ويعلن فنان أو فنانة انضماما مدويا لقافلة التوبة. ومن ناحية ثانية اندمجت الظاهرة فى خطابات ثقافية متبادلة، فصدرت كتب متفاوتة القيمة، كما دبجت المقالات، وأجريت الأحاديث والتحقيقات، وترتبت حملات إعلامية فى الصحف والمجلات وبرامج الإذاعة والتلفزيون. فتابع الرأى العام أخبار القافلة مصحوبة بالتبريرات والتعليقات ذات الكثافة والظلال الدينية متفاوتة العمق والجدية، فأخذت بمجامع القلب والعقل سواء بوهج مقولة التوبة، أو بحكم التحريم الذى دمغ هذا الفن أو ذاك، مما مارسه الفنانون المعتزلون، فوضع الفن ضمن الآثام التى نهى الله عنها، ليستقيم وجه الحياة، ويميز الإنسان بين مزالق الغى ومراقى الرشاد.

ولاشك أن هذه الظاهرة- فى بعض جوانبها- امتداد لعديد من أشكال الخطاب الدينى المعاصر الذى راح يلقى ذيوعا وانتشارا منذ عقد السبعينيات، بتأثير تيارات وسمت بالإسلام السياسي، وتبلورت فى ظل نظام قمعى كان يزعم اعتناقه مدنية الدولة، وأخذه بسنن التحديث، ولكنه تهاوى مع ثورة يناير ٢٠١١، على نحو أعطي- من ناحية ثانية- لهذه التيارات نفسها مشروعية الإعلان عن نفسها وعن قوة تأثيرها بين عامة الناس، بما يبلغها سدة الحكم وامتلاك مفاتيح القرار السياسي. ولكن بين المد والجذر الذى شهدته هذه التيارات فى الواقع المصري، إن لم يكن الواقع العربى عامة، ظلت فكرة تحريم الفن أو التحرج منه، وثيقة الصلة بعناصر ثقافية كامنة فى بنية التخلف عميقة الجذور فى وعى الطبقة الوسطي. وهذه

العناصر شكلت موقفا مفارقا للطبقة الوسطى من الفن والفنانين وأوساطهم الاجتماعية، فإن كان أكثر الأسر ترفض أن ينخرط أحد أبنائها فى عالم الفن، حتى لا يزرى به أو تعيّر عليه، وقد يتهم فى أخلاقه بسبب اشتغاله به، فكانت- من ناحية ثانية- تلوح له بالرياحين والشهرة والمجد والمال والنفوذ الدفين.

ومن هنا لم تكن ظاهرة اعتزال الفن المقرونة بإدانته، وليدة الصدفة الطارئة، ولا هى نتاج ما قد يظنه البعض صحوة دينية ويقظة ضمائر وعقول تهب من غفوتها على ما تقترفه من آثام وذنوب ليل نهار، فتباعد بين البشر وطاعة الله، ولكن وليدة أفكار متواترة فى الزمن تحولت إلى معتقدات راسخة، انفلتت من التفكير المتعمق الرزين، وتمتعت بسلطان ناجز على ألسنة الآباء والمعلمين وممثلى الطوائف الدينية والأصدقاء، لتصوغ كلية موقف إشكالى فى الوعى العام. ورغم أن هذه الوجوه التى تجسد الوعى العام، لا تفرض المعتقدات فرضا، ولا تملك جزرة الثواب على إتباعها، أو عصا الترهيب من مخالفتها إلا أننا- فيما يرى "جيروم ستولنيتز"- نتمثلها أو نمتصها من المناخ الفكرى الذى ننشأ فيه[1]. وربما أمكن فى هذا السياق أن نتسامح مع الرؤية الشائعة بين عامة الناس "common sense" بما يتفرع عنها من أحكام متناقضة وما تؤدى إليه من مواقف مختلفة ومتباينة، فليس العامة بالضرورة من العارفين بأسرار الفنون، وعلاقاتها المركبة بأحوال الوجود البشرى فى الكون والحياة، وما يتطلبه هذا الوجود من وظائف واحتياجات. ولكن هل يمكن أن نتسامح مع موقف اعتزال الفن الموشوم بالتوبة، بعدما تحول من خيار شخصى إلى "رؤية" تندد بالفن وتعلق أجراس الخطيئة فى رقبة ممارسيه؟، وإن كان فى الموقف

(١) ستولنيتز، جيروم- النقد الفني/ دراسة جمالية وفلسفية- ت: د. فؤاد زكريا- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ط٢/ ١٩٨١- ص٧.

خطأ فكيف يمكن فهمه وتفسيره وتلمس مكامنه؟، وكيف يمكن مواجهة الخطأ على مستوى الفنان نفسه، قبل مواجهته على مستوى القاعدة العريضة من الناس فى الطبقات والشرائح المجتمعية والثقافية، ممن يتعرضون للفن ويشتبكون بموضوعاته ومنتجاته على نحو من الأنحاء؟.

ليس الأمر- بالتأكيد- اكتشافا مباغتا لموضع الفنون فى قائمة التحريم، ولكنه فى الموقف الجمالى جملة وتفصيلا، مادام هذا الموقف يتعلق بالفن وموضوعاته ويؤثمه من الجذور، بينما الفن أصلا- وعلى نحو مبدئي- لا يمكن أن يخضع لقاعدة التحريم والتحليل أو المباح وغير المباح من الأفعال والممارسات الإنسانية من منظور الدين والوصايا الإلهية وخطط الأنبياء، لأنه مجال جد مختلف عن المجالات التى ينخرط فيها الإنسان فى واقع الحياة المعاش، مجال يستدعى حكم"الجمال"أو القبح، لا حكم الإباحة أو التحريم وما بينهما من درجات مخففة تجرى مجرى المُجاز أو المكروه. فلا بد- إذن- أن ثمة التباسا بين الفن عامة، وغيره مما ينشط إليه الإنسان من أعمال وينتجه من موضوعات، ولابد أن يترتب على هذا الالتباس غموض فيما يقتضيه الموقف الجمالى فتتولد القيم الخاطئة والمفاهيم المغلوطة، والآثار الأشد خطورة على الوعى العام والوضع الحضارى برمته، والأجيال الناشئة، فإذا الفن- فى يوم ما- أثر بعد عين، وذكرى من زمن غابر قد يوصم بالجاهلية، فلا ترجى استعادته، مع ما يرجى فى وعى مأزوم بالأحلام المستحيلة.

وقد تذكرت- طوال فترة اهتمامى بأوراق اعتزال الفن والتوبة عنه وإعلان تحريمه، بل والموقف الذى يكاد يكون سائدا بين الطبقات الاجتماعية، ويتحين الفرص المواتية وغير المواتية ليسفر عن نفسه فى أقوال وأفعال ارتداد عن الفن وعليه- تلك الدراسة القيمة التى كتبها"جورج ديكي"عن (الموقف الجمالي)، وما كنت قد دونته فى هوامشها وفى القصاصات التى أرفقتها بها، من تعليقات

ومراجعات، فحولتها إلى بحث علمي.ورأيت هذا البحث بما أمكن استخلاصه من مفاتيح وأدوات منهجية وثيقة الصلة بفلسفة الجمال، جديرا بأن يكون مدخلا لا استغناء عنه فى محاولة تحليل الظاهرة وفهمها وتأملها من مختلف جوانبها، لاسيما المتعلقة بالموقف الجمالى من الفنون.

ورأيت أن تأمل الموقف الجمالى من فنون الأداء، يقتضى مدخلا ثانيا من قراءة آراء أباء الكنيسة الأولين والمتعلقة بالموضوع نفسه، مما سوغ هجمتهم الشرسة التى خاضوها ضد بقاء المسارح وفن التمثيل، والآثار المعمارية، بل وكافة أشكال الثقافة التى كانت سائدة وقتذاك بزعم أنها وثنية. فقد كشفت هذه الآراء الذخيرة الأولى من الأفكار التى امتشقت باسم الغيرة على الفضيلة، آليات الهدم والقتل والإقصاء والحرمان ضد الفن الفنانين، وأفصحت عن البنية الفكرية العميقة فى ذهنية "رجل الدين"، بما فيه من أفكار مغلوطة وملتبسة ومشوهة، سواء أكانت من الحياة أو من الفن بما يتأسس عليه من"خيال".ولكم بدا مذهلا حجم التشابه إن لم يكن التماثل، بين بنية الأفكار التى واجه بها آباء الكنيسة الأولين سؤال الفنون، فى القرن الثالث الميلادى فى أوروبا، والبنية التى تتكشف فى اللحظة التاريخية الراهنة بين كثير ممن يعتبرون أنفسهم علماء أو عارفين بالدين الإسلامي، تتملك أنفسهم الغيرة عليه وعلى شريعته الغراء، بالرغم من اختلاف الدين وتباعد القرون، وكأن هناك وعى يحيا فضاء لا زمنيا على نحو جوهري، بلا ترقى أو تطور أو تجاوز لنفسه بالمعرفة وإمكانة تداولها بقيمة التراكم.

ولكن رغم هذه العقلية غير التاريخية التى أمكن الكشف عنها على نحو واضح متحكمة فى الفنون والموقف الجمالى منها، إلا أننى رأيت إضافة مدخل ثالث للظاهرة بعنوان"الأنا العاصية والجذور التاريخية"، يتناول تجلياتها فى مسيرة المسرح العربي، وكيف التفت على محاولات تأسيسه بين أشكال الثقافة باستلهام النماذج

والطرز الأوروبية، لوأدها وإيقاف امتدادها. وتحالف فى هذا العمق بنية وعى شكلت الموقف إزاء جماعة وظيفية مثل"الغجر"أنيطت بها الفنون، ورجال الدين أمثال الشيخ"سعيد الغبراء"، الذى طارد"القباني"واستعدى عليه سلطة الخلافة في"استنبول" وقتذاك وهيج ضده صبية الشوارع، حتى أجبره على الرحيل بفنه من سوريا فى القرن التاسع عشر.وقد أسفر العمق نفسه عن مواقف وأوضاع، تكاد تخفى نظرة رجل الدين، تحت الأعراف والمُثل الاجتماعية، التى هيمنت على الطبقة الوسطى ومن إليها، وتردد أفكار آباء الكنيسة الأولين.

وبعد هذه المداخل النظرية التى شكلت الجزء الأول، اتجهت فى الجزء الثانى إلى قراءات تحلل على نحو منهجى إشكالية فنون الأداء، بما تكشف عنه من أسئلة فرعية، وما قد يتولد عنها من إفساد الموقف الجمالى والانحراف به.بدءا من إشكالية"فن الرقص"ولاسيما ما يعرف بالشرقي، ثم فن الغناء، وأخيرا فن التمثيل باعتباره أكثر فنون الأداء تعقيدا وتركيبا فى الوقت نفسه.وفى كل أولئك لم أكن معنيا بظاهرة اعتزال الفن موشومة بالتوبة ومدموغة بحكم التحريم، أو بالأشخاص، ولكن كنت معنيا بتحليل الآراء والأفكار التى التبست بها، وأسفرت عما اعتبرته بالمواقف غير الجمالية، التى تسوغ- فى النهاية- تأثيم الفن وتيسر أسباب الارتداد عنه، وفى الوقت نفسه تحليل فنون الأداء نفسها بما تكشفه بحد ذاتها من أسس موضوعية تبرر وتفسر الأفكار الملتبسة نحوها. ولعل شهر رمضان بما يفيض به من الصفاء الذهني، وما يسمح به من أوقات التأمل والاستغراق فى التفكير وتفنيد الآراء ومقارنتها ببعضها، كان نعم العون فى إتمام هذا الكتاب، راجيا أن يسهم فى إعادة تأسيس الموقف الجمالى على أسس سليمة.

سيد الإمام

٢٩/ ٧/ ٢٠١٢ - ١٠/ رمضان/ ١٤٣٣هـ

obeikan.com